حامل لواء الرسول

مصعب بن عمير

obeikandl.com

obeikandl.com

مصعب بن عمير

حامل لواء الرسول

كان يمشى فى شوارع مكة مختالاً بنفسه . . يمكن أن تتنسم عن بعد الروائح التى يتعطر بها . . فهو شاب فى مقتبل العمر . . جميل المحيا . . يتألق حيوية وشبابًا . . ولا يشغله من شواغل الحياة شىء . . فهو مُرَفَّه . . ما عرف شظف العيش . . ولا هزته فواجع الفقر . . فوالداه يحبانه . . ويحققان له كل ما تصبو إليه نفسه .

وكان أيضًا يمتاز بذكاء واضح . . فهو لبق . . سريع الخاطر . . حلو المنطق . . يستطيع أن يجذب محدثه بسهولة ويسر .

هذا الشاب هو مصعب بن عمير .

ولا أحد يعرف كيف كان سيصبح مستقبل هذا الشاب لو لم يشهد الرسالة المحمدية .

ربما كان واحدًا من أغنياء مكة الذين يرثون عن أسرهم المال والجاه . . وربما يترك آثارًا فى مجتمع مكة كإنسان تحبه النساء

لوسامته وذكائه وحسن مظهره.

ولكنه أبدًا ما كان سيصبح علمًا من أعلام العقيدة . . أو فارسًا من فرسان الجهاد . . أو شهيدًا تتحدث عن بطولته الأجيال . . لو أنه لم يدخل دين الإسلام . . ويكون له هذا الدور الباهر كداعية للدين الجديد . . أو سفير للإسلام عندما أرسله النبى ﷺ قبيل الهجرة إلى المدينة ليعلِّم مَنْ أسلم منهم أمور دينهم . . وكانوا لا يزيدون على اثنى عشر مسلمًا من الذين بايعوا النبى ﷺ بيعة العقبة الأولى . . فإذا بالإسلام ينتشر فى يثرب انتشارًا سريعًا بفضل هذا الداعية العظيم . . الذى عرف كيف يصل إلى قلوب الناس وعقولهم، ويوضح لهم ما فى الإسلام من قيم شريفة . . ومبادئ رفيعة . . ترفع الإنسان عن مستوى الأحقاد والضغائن . . وتحول الوحش فى أعماقه إلى ضمير يقظ . . يعرف حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق الآخرين.

ما كاد مصعب بن عمير . . أو مصعب الخير كما كان يناديه صحابة رسول الله . . ما كاد يسمع أن هناك دعوة جديدة ينادى بها محمد بن عبدالله . . وأن هذه الدعوة تسفه أحلام مكة ، وتسخر من آلهتها الصماء العمياء البكماء التى لا تنفع ولا تضر . . وأن العبادة يجب أن تكون لله وحده خالق كل شىء ، حتى

استهواه الدين الجديد، وخاصة بعد أن استمع إلى رسول الله ﷺ.. ووجد فى كلماته نورًا ينفذ إلى أعماق القلب، ويضىء الطريق نحو حياة أفضل .. ونحو معرفة الحقيقة الأزلية التى لا حقيقة سواها.

فلا ينبغى أن تكون العبودية لغير الله .

ولا دستور حقيقى يرسم المستقبل الباهر للإنسان والبشرية سوى منهج الله .. فلم يتردد وأعلن إسلامه.

ولم يكن الأمر سهلاً ولا هينًا .. فالتقاليد تعمى القلوب .. والعادات تحاول أن تحجب نور الله .. فوالدته - التى كثيرًا ما دللته - وجدت فى إسلام ابنها ما يهز كيانها الاجتماعى .. فهى لا تستطيع أن تتصور أن يصبح ابنها صابئًا فى نظر أهل مكة.

هكذا تصورت أمه «خناس بنت مالك». فلما علمت بما كان يخفيه ابنها عنها وأنه دخل فى زمرة المسلمين .. وأنه كان يلتقى برسول الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ؛ حتى طار صوابه.. وقررت أن تثنى ابنها عن اعتقاده مهما كانت الظروف.. بل حتى لو أدى الأمر إلى حبسه إلى أن يموت فى سجنه.

ولنا أن نتصور مثل هذه الأم التى يمكنها أن تقتل كل مشاعر

الأمومة فى سبيل أن تعيد ابنها إلى ما كان عليه الآباء والأجداد.

بل لك أن تتصور قوة هذا المجتمع الجاهلى الذى رفض منطق العقل والمنطق .. ولم يرَ فى دعوة محمد بن عبدالله إلا أنها دعوة خطرة ستغير المجتمع ، وتقلبه رأسًا على عقب .. كما رأى هذا المجتمع الجاهلى أيضًا أن هذه الدعوة سترفع من مكانة بنى هاشم بين القبائل ، ومن ثم لا بد من محاربتها ووأدها ، فهو مجتمع لا يرى إلا ما تحت قدميه ، كما لا تتصور ما سوف تكون عليه حياتهم بعد أن تتوحد كلمتهم تحت لواء «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد غشى الجهل عيونهم ، وعميت بصيرتهم ، فهان عليهم كل شىء.

فقد عاش مصعب فى السجن الذى فرضته عليه أمه ، إلى أن علم بأن النبى ﷺ أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها ، وقرر الهرب من سجنه إلى الحبشة. والمعروف أنه هاجر إليها مرتين ، وقد حاول أن يقنع أمه بالدخول فى الإسلام ، ولكنها أصرت على الشرك، غير أنها وجدت فى ابنها الذى غيَّره الإسلام كثيراً شخصية أخرى ، فهو لم يعد ذلك الإنسان الذى يقابل كل الأمور بسلبية ، فقد قرر هذه المرة بعد أن عاد من دار هجرته فى

الحبشة أن يتصدى بالقوة لكل من يحاول أن يعترض طريقه، ولم تجد أمه أمام هذا الإصرار إلا أن تتركه لحال سبيله ، وربما لأنها قد وجدت ابنها لم يعد تهمه الحياة المترفة ، ولم يعد تهزه الثياب الغالية الثمن ، بل كل ما يهمه الجوهر. فروح الإيمان فى أعماقه، تجعل الدنيا فى عينيه لا تساوى شيئًا ، ومن ثم فهى وسيلته لعالم الخلود ، وليست غاية فى حد ذاتها.

ولقد قال عنه الرسول يوم رآه فى ثيابه المهلهلة ، وبعض أصحابه ينظرون إليه فى إشفاق:

«لقد رأيت مصعبًا هذا ، وما كان بمكة فتى أنعم عند أبويه منه. لقد ترك ذلك كله حبا لله ورسوله».

واختاره الرسول الكريم للذهاب إلى يثرب؛ ليعلِّم من دخل فى الإسلام فى بيعة العقبة الأولى (١٢رجلاً) الإسلام ، ووجد أهل يثرب فى رسول رسول الله تواضعًا وزهدًا وبعدًا عن الترف. ورأوا فيه أيضًا العقل الراجح المتفتح ، فإذا بالناس تقتنع بدعوة الإسلام ، حتى بلغ عددهم ٧٣ رجلاً ، وهم الذين جاءوا معه فى موسم الحج التالى. وقرر النبى مقابلتهم ، وكانت المقابلة بعيدة عن مكة بحوالى أربعة كيلو مترات؛ حتى لا يعرف مشركو مكة عنها شيئًا، فقد قابلهم الرسول الكريم وكان معه عمه العباس

ابن عبدالمطلب ، وتحت جنح الظلام حيث كان يسود الهدوء ، وليس يبدو من ظلام الليل ، وسكونه الموحش، سوى الأضواء الشاحبة، المنبعثة من القمر ، ليلتها عاهد هؤلاء الأنصار الرسول الكريم على الإسلام ، وكان ذلك عند العقبة.

وكانت هذه البيعة هى بيعة العقبة الثانية ، حينما اختار النبى منهم اثنى عشر نقيبًا؛ ليكونوا كُفَلاء على العهد الذى أخذه أهل يثرب على أنفسهم. وقد كانت بيعة العقبة هذه نقطة انطلاق هائلة، غيَّرت مسار التاريخ الإنسانى كله.

ولنضرب مثلاً :

كيف كان مصعب يستهوى الأفئدة لدخول الناس فى دين الله؟

جاءه يومًا أحد سادة يثرب وهو «أسيد بن حضير» يحمل سيفه، والغضب بادٍ على وجهه ، وقد استكثر أن يأتى مصعب ابن عمير ينشر دينه بين عشيرته ، واقترب منه وهو يتحدث عن الإسلام ، وأخذ يهدده ويزجره؛ ليكفَّ عن دعوته ، ونظر إلى سفير النبى، فرأى الإبتسامة تعلو شفتيه ، وهو ثابت لا يرتجف ولا يهتز من وعيده. وبهدوء قال مصعب:

«أو لا تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرنا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكرهه».

بهذه الدبلوماسية كانت لكلمات مصعب وقع السحر فى قلب الرجل ، حيث هدأ وانطفأ غضبه ، وأخذ يستمع إلى ما يقوله مصعب. إنه لا يدعو إلا إلى الفضيلة ، وصلة الرحم ، وكل ما هو جدير بالتقدير. واستمع إلى كلمات القرآن الكريم ، فإذا بها تنساب إلى أعماق نفسه ، وإذا به يدخل فى دين الله.

وأسلم بإسلام أسيد ، فيما بعد فى تاريخ الإسلام ، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة.

ويأذن الله لرسول الله بالهجرة من مكة إلى المدينة؛ ليأخذ التاريخ الإسلامى مسارًا جديدًا. وفى المدينة يؤاخى الرسول الكريم بين الأوس والخزرج، وتتكون أول حكومة إسلامية ، ويتحول الإسلام إلى الحركة أكثر ، وإذا بمكة يجن جنونها ، فلم يعد فى استطاعتهم صدُّ تقدم الإسلام ، أو الحد من انتشاره فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية. فكان لا بد من الصراع المسلح. ومن هنا كانت غزوة بدر ، حيث زحفت قريش بجيش ضخم ، لم تألفه المعارك فى الجاهلية من قبل.

جيش يقترب عدد جنوده من الألف ، مزودين بالعتاد والسلاح والغرور أيضًا. يجابه المسلمون هذا الجيش الكثيف وعددهم يقل عن ثلث عدده ، ويدفعهم إيمان أرسخ من الجبال ، وكان يرفع

راية المهاجرين مصعب بن عمير ، وراية الخزرج الحباب بن المنذر، وراية الأوس سعد بن معاذ.

وبدأت المعركة بمبارزة بين مَنْ يمثل المسلمين ، ومن يمثل المشركين.. ارتفعت ثلاثة سيوف من صفوف المسلمين: سيف على بن أبى طالب ، وحمزة بن عبدالمطلب. وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وبرزت سيوف مكة الممثلة فى سيوف شيبة ، وعتبة ، والوليد ، وتمكن فرسان المسلمين من قتل الثلاثة ، وبدأت المعركة ضارية قاسية، يخوضها المسلمون بإيمان من يريد أن يشم رائحة الجنة. وبدأ جيش الأعداء يتخاذل ، ثم أخذ يولى الأدبار ، بعد أن قتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر مثلهم.

وكان من بين القتلى عدو الله « أبوجهل».

وتريد مكة أن تثأر من هزيمة بدر ، فتخرج فى جيش هائل تحاول الهجوم على المسلمين فى المدينة ، ولكن النبى يقابلهم فى أحُد.

وتدور معركة قاسية ينتصر فيها المسلمون فى أول الأمر ، إلا أن الرماة خالفوا أمر الرسول ، وتركوا أماكنهم على جبل أحد؛ بغرض جمع الأسلاب ، فانتهز خالد بن الوليد قائد جيش المشركين الفرصة، وحاصر جيش المسلمين ، وكادت الدائرة أن تدور على المسلمين ، لولا استبسال الرسول الكريم ، وحوله

بعض الصحابة .

وكان يحمل لواء الرسول فى هذه المعركة أيضًا مصعب بن عمير، الذى حمل الراية ، وهو يقاتل دفاعًا عن دينه ، باستبسال عجيب، حتى تَكاثَرَ من حوله الأعداء ، وأخذوا يلتفون من حوله، فضربوا عضده الأيمن ، فرفع الراية بيده اليسرى فأصيب، فحمل الراية بعضديه ، وأخذ يصيح حاضا المسلمين على القتال، وهو يردد قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وظل مصعب يرسل نداءه المدوِّى ، فإذا بالحماسة تدب فى صفوف المسلمين ، مدافعين عن رسول الله ، إلى أن اخترق رمح ظهره، فوقع جسد هذا المؤمن العظيم مضرجًا فى دمائه ، بعد أن صعدت روحه إلى السماء.

وتنتهى المعركة، ويتفقد الرسول العظيم - رغم جراحه - أرض المعركة فى ذلك اليوم الحزين الذى سقط فيه كثير من الشهداء، منهم سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ، وسفير رسول الله فى المدينة المنورة مصعب بن عمير. كان الحزن يملأ قلب الرسول، وهو يرى كيف مثَّل المشركون بجثة عمه الشهيد حمزة، وكيف رأى صحابته مضرجين فى دمائهم على أرض المعركة. ولمحت

عيناه مصعبًا ، فذرفت الدموع من عينيه وقال: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم قال وهو يرى الشهيد فى ثوبه البالى المرقع الذى كفن به :

«لقد رأيتك بمكة ، وما بها أرقَّ حلة ، ولا أحسن لِّمَّةً منك ، ثم ها أنتذا شعث الرأس فى بردة».

ويدفن الجسد الطاهر ، وتبقى ذكراه عطرة توحى بكل ما هو عظيم وجليل ، ما بقى هناك تاريخ يردد ذكرى أبطال الجهاد العظام ، الذين داسوا الدنيا وعرضها الزائل من أجل لقاء الله. وما عند الله خير وأبقى.

***